

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 10/ العــدد 20 –السنة 2020 ص ص 189–224
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

تاريخ الاستلام: 2019/11/28 تاريخ القبول: 2020/05/20 تاريخ النشر: 2020/07/12

أ.حسيـــن زويـــد [1]
جامعة بــاجي مختـــار-عنـــابة
Email : zouyedhocine@yahoo.fr

ملخـــص:

شكّلت المجالات الدّلاليّة للخطاب في القرآن الكريم تنوّعا تعبيريّا، أحال على قيم فنّية اكتنفتها الكثير من الأسرار البلاغيّة التي أضحت السّمة الغالبة للنصّ القرآني غير أنّ وحدة التوجّه في الخطاب القرآني الذي تحدّه ثنائيّة الأمر والنّهي يوحي لأوّل وهلة بنمطيّة صورة التّركيب ومعانيه البلاغيّة.

كيف يمكننا تحديد القيم الفنّية للخطاب القرآني في أسلوب النّداء وما هي المعاني الإضافيّة التي تفرزها قراءة مثل هذه الأساليب ذات النمطيّة المتكرّرة ــ أقصد التّجانس في التّركيب ؟

الكلمات المفتاحية: *الانزياح، المجالات الدلالية، الخطاب القرآني، أسلوب النداء.*

Abstract

The semantic field of the Qur'anic discourse involved diversity in the expression referred to artistic values that include a lot of rhetorical secrets which become the dominant feature of the holy text. However, the unity of the orientation in the Qur'anic discourse that is bordered by dualism of order and prohibition implies the pattern of the structure and rhetorical meanings.

The hypothesis: How can we determine the artistic values of the Qur'anic discourse through the call style model? And what are the additional meanings produced by reading such repetitive patterns? We mean coherence in structure?

Keywords: *the dispmacement, lexical fields, Qur'anic speech, calling style.*

[1] المرسل المألف: أ. حســين زويـــد: ouyedhocine@yahoo.fr

توطئـــــة:

إنّ التّنوّع الذي يزخر به النّظم القرآني كثيرا ما يختزن ضمن السّياقات المختلفة التي ترد فيها فعّالية الوحدات الدّالة على المعاني وروافدها إذا ما هي انفصلت بوصفها مفردات أحاديّة لها خصوصيّة تميّزها عن أيّ مفردة أخرى تنتمي إلى نصّ سوى النصّ القرآني، أو أنّ هذه المفردات اتّحدت فيما بينها لتشكّل التّركيب النّحوي الذي بمجموعه يتحقّق مفهوم الآية أو يرتسم للذّهن حدود المعنى الأوّلي أو المعنى التّأسيسي، الذي يمدّ وشائجه لما بعده فينشأ بذلك المعنى الإضافي الذي لو تخلّت عليه الآية الواحدة لانصرم حبل ودّها مع نظيراتها من الآيات اللّواتي يعملن على إتمام البناء الكلّي المتمثّل في الصّورة القرآنيّة.

فالصّورة القرآنيّة بوصفها نصّا مستقلاّ لا تكاد تكتفي بذاتها إلاّ بعدما تجتمع لها بقيّة معاني الصّور الأخرى التي تناثرت فيها مكمّلات المعنى الذي ذكر أوّلا، لهذا اجتهد المفسّرون قديما وحديثا في جمع شتات معاني الموضوع الواحد، فكلّما اقترب الواحد منهم من المبتغى الذي يصبو إليه تفاجأ بتفريعات تقوده إلى معان جديدة يودّ لو أنّه تيسّر له فهم أبعادها وما تقود إليه حتّى يؤسّس لنظريّة غير تلك التي عزم على بلورتها أوّلا ونافح على صحّة أدلّته في رجحانها عن غيرها التي تناولت القضيّة نفسها وفي الموضوع ذاته والآية عينها.

فما كان من ذلك إلاّ أن برزت للمجتهدين قضية الإعجاز التي لم تصرف العلماء قديما ولا حديثا عن الاستقراء الدّقيق للغة النصّ القرآني واستخراج مكنوناته بتوظيف جميع أدوات البحث والسّبر والاستقصاء، فعملوا على إعادة قراءة الشّعر العربي بوصفه ديوانهم الأوّل ومجمع تراثهم الفكري، حتّى إذا اجتمع لهم النّصيب الوافر من المعاني ومسالك الفكر أفضى بهم كلّ ذلك إلى تجديد العزم

نحو قراءات جديدة للقرآن، ممّا أدّى إلى هذا الزّخم الكبير من التّفاسير ذات الاتّجاهات المختلفة في طريقة التّفسير ومنهجيتها، الأمر الذي أبان عن وجوه كثيرة ومواضيع متعدّدة لكلّ مجتهد حظّ في اكتشافها واستخراج أسرارها كلّ بحسب اختصاصه، وهذا ما بيّن فعليّا وجوه الإعجاز بغضّ النّظر عمّا ألفناه في كتب القدماء عند تعرّضهم لهذه المسألة.

فآليّات القراءة الحديثة والمعاصرة وجدت في القرآن ضالّتها كذلك رغم حداثة أنماط التّأويل والتّوجيه المتعلّقة بالنصّ المغلق أو المفتوح، فهذه الطّرائق المستحدثة استطاعت هي الأخرى أن تجلّي الكثير من أوجه الإعجاز ومظاهره في النصّ القرآني، فالعبرة إذن في قضيّة الإعجاز ليست بما قاله قائل في زمن دون زمن وإنّما العبرة في مسألة الإعجاز هي تجدّد النّص القرآني رغم ثباته، وذلك بمرونة مفرداته وتراكيبه ونظمه وقوّة اختزالها لشحنة المعاني التي كلّما وجدت من يستنبطها ويستبعثها كانت له نعم المجيب لمبتغاه المقصود، ممّا يتيح حتما فرصة البحث من جديد كلّما توافرت دواع لذلك وفق القواعد المثلى التي قُرّرت في باب الاجتهاد، وظهرت لمن هو في زمانه دوافع ومعطيات أخرى لم تكن في السّالف من الزّمن.

وهذا ما حاولت أن أستجليه في هذه الدّراسة التي ضمنّتها بعض النّماذج من القرآن الكريم، تكشف عن وجوه الإعجاز في الخطاب الذي تكرّر بصور مختلفة لكن ضمن أسلوب واحد وهو أسلوب النّداء الذي حوى عدّة مجالات دلاليّة صنّفت فحوى الخطاب حسب المقام ونوعيّة المخاطَب، والأمر الملفت في هذا النّوع من الخطابات في القرآن الكريم أنّه كثيرا ما تكرّر بصيغ تركيبيّة تكاد تكون نفسها، إلاّ أنّها سرعان ما تنعطف نحو معنى غير ذلك الذي جاء أوّلا، فخطاب

المؤمنين في القرآن ابْتُدِأَ كلّه بعبارة " يا أيّها الذين آمنوا" وكأنّ هذا التّركيب هو المركز الذي تتفرّع عنده المعاني الأخرى التي تشكّل فحوى الخطاب، ممّا عكس نوعا من المخالفة التّعبيريّة في النّمط الواحد وهذه المخالفة المقصودة بدرسنا فأدخلناها في باب الانزياح الأسلوبي.

وهذا ما أردت تبيان قيمه الجماليّة في هذه الدّراسة وقد حصرت تطبيق هذه النّظريّة في التّراكيب المتشابهة التي تكرّرت أكثر من مرّة، غير أنّ كلّ تركيب انفرد بميزة تُتَمِّمُ معاني التّركيب القبلي وتُضيف إليه معنى آخر، وهو ما اعتبرته أنّه شكل من أشكال الانزياح في الأسلوب القرآني، حيث رصدت لذلك ثلاثة نماذج ضمّ كلّ نموذج منها أكثر من ثماني آيات تتكوّن من صورة نمطيّة واحدة تتكرّر لتفتح مجالا أوسع في الخطاب الذي ظهر أكثر ما ظهر في آيات النّداء بتركيبه المتضمّن لعناصر ثلاثة هي الحرف والمنادى ونصّ الرّسالة الموجّه للمخاطَب.

أوّلا: علاقة المجاز بالانزياح

تكاد تكون المصطلحات الحديثة والمعاصرة جميعها امتدادا في المفهوم لما قد قرّره القدماء من العلماء، فالباحث في أصول المعارف يجد أنّها غالبا ما تشترك في الخلفيّة الفكريّة نفسها وأنّ منطلقها واحد، فما نلحظه من علاقة واضحة بين البلاغة والأسلوبيّة لدليل على ما هو كائن في بقيّة علوم اللّغة والأدب الأخرى لذلك نشأت دراسات تبحث في تأصيل المسائل العلميّة انطلاقا من مصادرها الأولى، التي حوت بعض الإرهاصات التي افتقدت في معظمها إلى التّقعيد وهذه طبيعة كلّ علم في بدايته وإن كان المجاز في الدّرس البلاغي قد اكتمل نضجه وبانت جميع ملامحه النّظريّة وصور تطبيقاته.

لكن ثمّة من الأسلوبيّين المحدثين من استطاع أن يمدّ أواصر العلاقة بين المجاز بوصفه خلاف الحقيقة، والانزياح؛ الذي يعني في أبسط مفاهيمه مخالفة الموجود وفق معايير أسلوبيّة محدّدة فليست كلّ مخالفة تعدّ انزياحا، لهذا أقرّ الأسلوبيّون فيما نظّروا بالانزياح الصّفري و لم يقولوا بفكرة الانزياح السّلبي الذي بنيت لغة النصّ فيه على المخالفة من أجل المخالفة لا غير دونما ملامح فنيّة تدلّ على قيم تعبيريّة جديدة تضمن للنصّ رواجه، وحتّى نوضّح بعض ملامح تلك العلاقة التي تربط بين المجاز والانزياح لابدّ من العودة إلى المصادر التي وضّحت دلالة مفهوم كلّ منهما ومجالات استعماله.

أ ـــ المجاز:

فالمجاز عند " عبد القاهر الجرجاني" (ت 471هـــ) هو: «كلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثّاني والأوّل، فهي مجاز، وإن شئت قلت: كلّ كلمة جُزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، غير أن تستأنف فيها وضعا، لملاحظة بين ما تجوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها في المجاز» الجرجاني، ع.القاهر.2004.ص251) لأنّ الحقيقة عنده هي: «كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وإن شئت قلت: في مواضعة وقوعا لا تستند فيه إلى غيره فهي (حقيقة)» الجرجاني، ع.القاهر. 2004.ص250، فالمجاز إذن جاوز في حدّه معنى معلوما بالضّرورة متّفق عليه هو ما تعارف عليه المجتمع في أصل الوضع الأوّل فكان من ذلك أن كانت الحقيقة معلما ثابتا يبيّن درجة انحراف المعنى المجازي عن المعنى العادي الذي ينقدح في الذّهن بمجرّد التلفّظ بلفظ جرى الكلام به بين المتخاطبين.

وقد فصّل "السكّاكي" القول في معنى المجاز فقال: « الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتّحقيق، استعمالا في الغير بالنّسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع، وقولي: بالتّحقيق احتراز أن لا تخرج الاستعارة، التي هي من باب المجاز، ونظرا إلى دعوى استعمالها فيما هي موضوعة له، وقولي: استعمالا في الغير بالنّسبة إلى نوع حقيقتها، احتراز عمّا اتّفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له، لا بالنسبة إلى نوع حقيقتها، كما إذا استعمل صاحب اللّغة لفظ: "الغائط" مجازا فيما يفضل عن الإنسان من منهضم متناولاته، أو كما إذا استعار صاحب الحقيقة الشّرعيّة: "الصلاة" للدعاء، أو صاحب العرف"الدابة": للحمار، والمراد بنوع حقيقتها اللّغوية، إن كانت إيّاها، أو الشرعيّة أو العرفيّة، أية كانت ،وقولي: مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع، احتراز عن الكناية فإنّ الكناية كما ستعرف، تستعمل فيراد بها المكنّى عنه، فتقع مستعملة في غير ما هي موضوعة له، مع أنّا لا نسمّيها مجازا لعرائها عن هذا القيد» (السكاكي،ي.2000.ص468)

فهذا النصّ يضمّ تعريفا أكثر شموليّة لأنّ "السكّاكي" احترز ممّا وقع فيه "الجرجاني" من تعميم في المفهوم. غير أنّ الذي يهمّنا في هذين المفهومين المتقاربين هو أنّ صورة المجاز هو استعمال لفظة في غير معناها المعجمي (الحقيقي أو الأصلي) (إبراهيم، م.وآخرون.دت.ص146) لوجود علاقة بين المعنى اللّغوي الأصلي لهذه اللّفظة والمعنى المجازي (الجديد) النّاتج عن ذلك الاستعمال (بشرط وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي للّفظة).

والمجاز اللّغوي يشمل الاستعارة بأنواعها(الاستعارة التّصريحيّة والاستعارة المكنيّة والتّمثيليّة) كما يشمل المجاز المرسل والكناية، والمجاز المرسل هو

استخدام لفظ في غير معناه الأصلي مع وجود علاقة (غير علاقة مشابهة) بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد، أمّا الاستعارة فهي استخدام اللّفظ في معناه الأصلي مع وجود شبه بين المعنى(الأصل) لهذا اللّفظ ومعناه المجازي الجديد في استخدامه الجديد، ووظيفة المجاز في تصوير بعض علماء البلاغة العربيّة أنّه يضفي جمالا على التّعبير ويزيد من مقدرته التأثيريّة من خلال الإيجاز أو المبالغة أو تصوير المعاني المجردّة، أو إضفاء طبيعة حيّة على الجماد، أو إضفاء الطّابع الإنساني. (المسيري، ع.الوهاب.2002.ص12) وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الصّلة بين الدّال والمدلول في المجاز ليست اعتباطيّة كما هي في الكلام الجاري على الحقيقة، بل لابدّ من أن تكون هناك مناسبة بين اللّفظ وبين ما نقل إليه، وهذا ما سمّاه "عبد القاهر" بـــ (الملاحظة)، ثمّ سمّيت فيما بعد بـــ(العلاقة)، أي أنّ البلاغيّين اشترطوا أن يكون بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي صلة أوصلات تمكّن من أن يربط بين كليهما، وإلاّ فإنّ اللّغة تقف عن أداء وظيفتها. (أحمد،م.ويس.دت.ص45)

فما الدّاعي إلى اللّجوء إلى المجاز والعدول عن الحقيقة التي تمثّل صورة واقع متداول بين أفراد مجتمع ما؟ هذا السّؤال أجاب عنه "ابن جنّي" (ت392هـــ): «وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتّساع، والتّوكيد، والتّشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتّة.» (ابن جني أبو الفتح.دت.ج442/2)، وعليه فالمجاز متطلّب من متطلّبات مستخدمي اللّغة قصد تجلية غوامض يعسر فهمها لولا التّمثيل والتّشبيه علما أنّ المجاز في عرف اللّغة هو حقيقة ثانية، لأنّ مستويات المجاز لا تنفصل تماما عن الواقع اللّغوي الحقيقي.

وممّا يؤكّد هذه العلاقة قول "ابن الأثير" (ت637هـــ) « وأعجب ما في العبارة المجازية أنّها تنقل السّامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتّى إنّها

ليسمُح بها البخيل، ويشجُع بها الجبان، ويحكم بها الطّائش المتسرّع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتّى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه بذل مال، أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو السّحر الحلال، المستغني عن إلقاء العصا والحبال». (ابن الأثير أبو الفتح.1995. ج79/1) فما هذه حقيقته وأثره في كلام المتكلّم لابدّ أن يكون جزءا مهمّا من متمّمات عمليّة التّخاطب المقصود بها التّفاهم بين الأفراد، الذين يقحمون المجاز في كلامهم حتّى يزيدوه رونقا وجمالا يسحر لبّ السّامع فلا يحدث حينئذ إلاّ الرّضا بين الطّرفين المتكلّم والسّامع.

وشأن المجاز شأن غيره من ألوان التّعبير التي إذا ما تكرّر ورودها مجّها الذّوق وصارت مبتذلة إذا ما حاكاها متكلّم آخر قصد الإبداع، وهذا ما حاول الأدباء قديما تحصيله من خلال ابتعادهم عن المجازات التي كثر دورانها في كلامهم، فيعدّ الواحد منهم مجدّدا وحائزا على قصب السّبق إذا هو ضمّن قصيدته أو خطبته أنواعا من صور المجاز لم يسبقه إليها غيره ويكون بذلك المرجع فيما أورده، وهذا ما يجعل من المجاز مستويات متفاوتة من حيث قيمها الفنيّة شرط التخلّص من الغريب الموحش، كذلك يفضي عند النقّاد إلى التكلّف، قال "العزّ بن عبد السلام"(ت: 660هـ): « المجاز استعمال لفظ الحقيقة فيما وضع دالا عليه، لنسبة وعلاقة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، فلا يصحّ التجوّز إلاّ بنسبة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، وتلك النّسبة متنوّعة، فإذا قوي التعلّق بين محلي الحقيقة والمجاز، فهو المجاز الظّاهر الواضح، وإذا ضعف التعلّق بينهما إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظيره في المجاز، فهو مجاز التّعقيد، فلا يحمل عليه شيء من الكتاب والسنّة، ولا ينطق به فصيح وقد تقع علاقة بين الضّعيفة والقويّة، فمن العلماء من

يتجوّز بها؛ لقوّتها بالنّسبة إلى العلاقة الضّعيفة، ومنهم من لا يتجوّز بها؛ لانحطاطها عن العلاقة القويّة.»(العز، بن ع.السلام.1995.ص38)، فمعيار القيمة الفنيّة لأيّ عمل إبداعي تتوقّف على نسبة توظيف الصّور المجازيّة التي تنقل العمل الإبداعي من مستواه العادي في اللّغة إلى مستوى أعلى يحقّق مفهوم الإبداع.

ب ـــ الانزياح:

أمّا الانزياح فقد اختلف المحدثون من اللّسانيّين في تعريفه كما اختلف القدماء في حدّ المجاز وإن كان الأوائل والأواخر منهم قد أجمعوا على القيم الفنّية لكلّ من المجاز والانزياح يقول الأستاذ "عبد الملك مرتاض" معرّفا الانزياح بقوله:« إنه هو الذي يزيح الدّلالة عن موضعها الذي وضعت فيه أو له في أصل المعاجم، و يمنحها خصوصيّة دلاليّة جديدة هي التي يحملها المبدع في لغته، وذلك بتوتير الأسلوب، وتفجير معاني اللّغة، وتخصيب نسوجها» (مرتاض، ع.الملك.2005.ص13)، فالانزياح إذن هو مخالفة المستوى العادي من التّعابير الشّائعة حتّى تحدث المفاضلة بين أسلوب وآخر، فالأسلوب لا يحقّق قيمة العمل الإبداعي إلاّ إذا خالف المألوف من الصّياغات والسّياقات التي كثيرا ما ترد في الخطاب العادي.

مصطلح الانزياح أدلّ ما يكون على معناه اللّغوي الذي يعني الزّوال والتّباعد عن الموضع الأصيل (إبراهيم، م.وآخرون.دت.ص406) ولمّا كان الانزياح في أصل وضعه اللّغوي يوحي بمعان جمعتها مفردات تكاد تمثّل مرادفات لهذا المصطلح وهي: الانحراف، العدول، الخرق، المفارقة، الانتهاك وغيرها من المصطلحات التي جعلها الأسلوبيّون قريبة المدلول ممّا فسّروا به مصطلح الانزياح،

وقد أحصاها أحد الباحثين فوجدها تربوا على أربعين مصطلحا (ينظر المسدي، ع. السلام. 1993.ص100)، وإن رجّح بعضهم توظيف أحد هذه المصطلحات دون غيرها زعما منهم أنّها الأحقّ بالدّلالة على التّغاير والابتعاد عن المطّرد من العبارات الشّائعة، ممّا يوقع القارئ في حيرة من أمره لما يرى من تعدّد في المصطلح دون رسم حدود للفروق التي تفرد كلّ مصطلح من المصطلحات السّالفة الذّكر.

وكما كان للمجاز مستويات دنيا وأخرى عليا كذلك كان الشّأن بالنّسبة للانزياح يقول " أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر" :« عندما تكون دراسة العوامل الأسلوبيّة دراسة تميل إلى وقائع الانزياح، فإنّه لمن الضّروري أن نميّز بين الانزياحات النّوعيّة (غير القاعديّة) والتي تعدّ نادرة نسبيًا باستثناء الشّعر الحديث، وبين الانزياحات الكميّة (المرتبطة بالتّكرار النّسبي الذي يكون معه بعض السّمات الكلاميّة مختارة أو متجنّبة) والتي هي أكثر عددا من غير شك، ويعدّ الوقوف على الانزياحات الكميّة أكثر صعوبة من الانزياحات النّوعيّة، وذلك لأنّ تعريف التّكرار العادي للمرجع يطرح العديد من المشكلات. وأخيرا فإنّه لمن الملائم أن نميّز بين الانزياحات التي تحيل إلى السّياق الخارج نصّي وإلى الانزياحات التي لا تبلغ هذا المقام إلاّ أنّها تحيل إلى سياق لساني متعال»(يكرو.أ.سشايفر.ج.م، 2007.ص584)

فلو تمّت عمليّة المقارنة الصّحيحة بين هذا النصّ ونصّ "العز بن عبد السلام" لوجدنا أنّ الأوّل متضمّن في الثّاني مع تغييرات طفيفة في الألفاظ والعبارات بحكم التّرجمة، وإلاّ فالمفهوم واحد بالنّسبة للمجاز والانزياح في النصّين ويظهر ذلك جليًا في نوعي الانزياح الاستبدالي والتّركيبي، فالاستبدالي مثلا عماده الأوّل الاستعارة التي تمثّل أساس تشكّله، والمقصود بالاستعارة هنا تلك التي تقوم على

إعارة كلمة واحدة تستعمل بمعنى مشابه لمعناها الأصيل ومختلف عنه، وهذا ما أكّده "كوهن" في كتابه (بنية اللّغة الشعرية) حين قال: « المنبع الأساسي لكلّ شعر هو مجاز المجازات وهو الاستعارة»(أحمد. م.ويس،2005. ص11).

إنّ ما تصوّره الدّراسات الأسلوبيّة الحديثة على أنّ الانزياح ظاهرة جديدة، فهي ليست في جوهرها إلاّ ما قامت عليه البلاغة العربيّة من وسائل لغويّة أسلوبيّة في الخروج عن الأنماط والدّلالات الوضعيّة في الألفاظ والتّراكيب، فالكثير من مباحث علم البيان، والمجاز، والاستعارة، والكناية، تدور حول استعمال الألفاظ والعبارات في غير ما وضعت له، أي بانزياحات وعدول وما ذلك إلاّ مظاهر تمثّل انزياح الكلام عن نسقه المألوف، فنظريّة الانزياح باعتبارها إجراء لغويّا تجد لها بعدا مهمّا في التّراث البلاغي العربي حتّى خلال الحديث عن المجاز والعدول والتوسّع. (أحمد،ش.2002.ص130)

ثانيا: الانزياحات القرآنية في بعض النماذج

تعدّدت الأساليب القرآنيّة وتنوّعت بين أسلوب القصّ والوعظ والوعد والوعيد والأمر والنّهي والاستفهام فيما يخصّ الأحكام الفقهيّة، وكلّ ذلك جار على نسق متجانس يجمعه الخطاب العامّ في القرآن الكريم الذي استهلّ جميع تلك الأساليب بعبارات تفتح باب الحوار بينه عزّ وجلّ وبين عباده سواء بضمير الغيبة أو الحضور، وهو ما يحقّق أوّل وجوه الإعجاز الذي يكشف عن جميع قيم الانزياح ودرجاته سواء تعلّق الأمر باللّفظ أو المعنى أو التّركيب أو طبيعة الموضوع في حدّ ذاته أو كيفيّة الجمع بين المواضيع المختلفة ضمن سياق واحد لتشكيل مشهد من مشاهد الحياة الدّنيا أو الآخرة، (المطعني، ع.العظيم.1992.ج163/1) ولعلّ المميّزات التي خصّ بها الأستاذ " محمد

عبد الله دراز" القرآن الكريم خير ما يلخّص مجالات الانزياح في النصّ الكريم، وهي كالآتي:

أ ــ القصد في اللّفظ والوفاء بحقّ المعنى:

هذه خاصّة لم تعرف لغير القرآن، فإنّ أبلغ البلغاء من النّاس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه قليل، ومعناه واف وهو إن اتّفق له في الموضع الواحد والموضعين، فلا يتّفق له في جملة كلام، شعرا ونثرا وما هي بحاصل إلاّ على كلام نسبي غير مطّرد، بحسب ما أوتي من إلهام وتوفيق. فأبلغ البلغاء إذا حفل باللّفظ أضرّ بالمعنى، وإذا حفل بالمعنى أضرّ باللّفظ. نهايتان من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزّوج بين ضرّتين، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما.

خذ من القرآن مقدارا من الكلام، وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجبا ثمّ انظر أي الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتّعديل أو التّبديل دون أن تخلّ بمعناه؟.

ولو نزعت منه –أي القرآن –لفظة ثمّ أدرت لسان العرب لتضع موضعها لفظة أحسن منها لم تجد.

ب ــ خطاب العامّة وخطاب الخاصّة:

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم النّاس، فمن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه، ومن يخاطب العامّة باللّمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون.

فلا بدّ من التّفرقة في الخطاب بين المقامين، ولا يوجد في النّاس من يحسن هذا كائنا من كان، لا تجد ذلك على أتّمه إلاّ في القرآن الكريم، هو متعة العامّة ونزهة الخاصّة، ميسّر لكلّ من أراد.

ج ــ إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

في النّفس قوّتان، قوّة تفكير وقوّة وجدان، وحاجة كلّ واحدة منهما غير حاجة الأخرى، ولا تجد بليغا يفي لك بحاجة القوتين في عبارة واحدة، ولكنّك تجد ذلك في القرآن الحكيم، في أجمل صورة وأوضح بيان.

د ــ البيان والإجمال:

وهذه عجيبة أخرى لا تجدها في غير القرآن، لأنّ النّاس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتّسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو اللّغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطّرفان في كلام واحد.

أمّا القرآن فإنّه يستثمر برفق أقلّ ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني يستوي في ذلك مواضع إجماله، التي يسمّيها النّاس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمّونها الإطناب، ولذلك نسمّيه إيجازا كلّه لأنّنا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف. (محمد، ع الله.د.1974.ص103)

ومنافحة "الباقلاني"(ت403هــ) عن فكرة تفرّد القرآن بشكل جديد هو ما هو عليه، دفع به إلى محاولة حصر القوالب التي جاء عليها كلام العرب، وقد مهّد لذلك بقوله:« الذي يشتمل عليه بديع نظم القرآن وجوه، منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظمه على تصرّف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من تركيب خطابهم وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد» (الباقلاني،أبو

بكر.دت.ص191)، ثمّ تتبّع أشكال كلام العرب وقوالبهم وانتهت به محاولته إلى أنّ الكلام المنظوم يأتي على نحو من الأنحاء الآتية:

النّحو الأوّل: أعاريض الشّعر على اختلاف أنواعه.

النّحو الثّاني: الكلام الموزون غير المقفى.

النّحو الثالث: الكلام المعدّل المسجع.

النحو الرابع: الكلام المعدل الموزون غير المسجع.

النّحو الخامس: الكلام الذي يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وتركيب لطيف وإن لم يكن معتدلا في وزنه. (الباقلاني،أبو بكر.1978.ص191)

فدروب الكلام على هذا النّحو قلّما تخرج عند العرب عن المجاز أو الانزياح المزدوج بيانا وبديعا، فما تصفيف الألفاظ قصد نسج عبارات مسجوعة إلاّ نمطا من أنماط الخروج عن مألوف الكلام، وهذا ما تقابله الفاصلة القرآنيّة بجرسها رغم كونها تتكرّر بأشكال متعدّدة ومتباعدة، فلئن جاء القرآن الكريم بلغة عربيّة مبينة فإنّه لم يأت بها موافقة تمام الموافقة لما عليه العرب، بل كانت له طريقة جديدة في استعمال اللّغة استعمالا يخرج بها كثيرا عمّا هي عندهم، فهي كما يقول ــ مالك بن نبيّ ــ « طريقة فجائيّة غريبة» (ابن نبي، م.2000.ص178)تقتضيها طبيعة الرّسالة الإسلامية، وفي هذا يقول "ابن نبيّ" مرّة أخرى :« لقد كان حتما على القرآن ــ إذا ما أراد أن يدخل في اللّغة العربيّة فكرته الدّينيّة، ومفاهيمه التّوحيديّة ــ أن يتجاوز الحدود التّقليديّة للأدب الجاهلي. والحقّ أنّه قد أحدث انقلابا هائلا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنيّة في التّعبير: فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظّمة في موضع البيت الموزون، وجاء

من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة لكي يصل العقليّة الجاهليّة بتيّار التّوحيد.»(ابن نبي،م.2000.ص179)، ويلفت انتباهنا في قول "ابن نبي" بيانه أنّ انزياح القرآن كان في الأداة اللّغويّة الفنيّة، وكذا في الفكرة الجديدة، وبهذا حدث الانقلاب الهائل في الأدب العربي الذي كان الشّعر عماده، فإذا جاز اعتبار الشّعر في عمومه انزياحا عن لغة الحديث فإنّ القرآن الكريم انزياح على انزياح. (أحمد،م.ويس.2005.ص29)

ثالثا: القيم الفنّية للانزياح في أسلوب النّداء في القرآن الكريم

يعدّ أسلوب النّداء من الأساليب التي تكرّر ورودها في القرآن الكريم بشكل ملفت للانتباه حتّى إنّه لا تكاد تمرّ آية من آيات الذّكر الحكيم إلاّ و تضمّن نصّها تركيبا من تراكيب النّداء المختلفة، هذه الكثرة النّوعيّة شكّلت مجالات دلاليّة انطلاقا من طبيعة المخاطَب وفحوى الخطاب، ونقصد بفحوى الخطاب هاهنا هو مضمون الرّسالة التي يتلقّاها أيّ مخاطب، ومركّب النّداء عادة ما يتكوّن من حرف للنّداء يليه المنادى وهو المخاطب ثمّ تابع المنادى الذي يمكن أن يكون وصفا مفردا أو جملة إنشائيّة أو خبريّة، فهذا التّعدّد هو الذي أدّى إلى ظهور أنماط كثيرة من التّراكيب في النّداء وهو الذي أحال على معان إضافيّة عملت على ما يعرف بتكثيف المعنى، يقول " حازم القرطاجني" (ت684هـــ) « وما يتركّب من جهة التعدّد والاتّحاد في جميع ذلك، واقتران كلّ واحد من الأفعال وما تستند إليه، وما تطلبه بالآخر على حال موافقة له في التعدّد والاتّحاد أو مخالفة، تنقسم ثمانية أقسام:

1. متّحد الفاعل، متّحد المفعول، متعدّد الفعل
2. أو متعدّد الفاعل والمفعول.

3. أو متّحد الفعل والفاعل، متعدّد المفعول.
4. أو متّحد الفعل، متعدّد الفاعل والمفعول.
5. أو متّحد المفعول، متّحد الفعل، متعدّد الفاعل.
6. أو متّحد المفعول، متعدّد الفاعل والفعل.
7. أو متّحد الجميع.
8. أو متعدّد الجميع. » (القرطاجنّي،ح.دت.ص32)

فأمثال هذه الصّور النّمطيّة من التّراكيب النّحويّة هي التي غالبا ما رافقت مركّب النّداء ووليت المنادى عاملة على تحقيق الطّرف الثّالث من التّركيب الذي يوجّه المعنى ويتحكّم في مساره، وهو ما حقّق مفهوم الانزياح في المجال الدّلالي الذي عادة ما يرتبط بجملة تتكرّر في الغالب ويكون الفارق بين مجموع هذه الجمل المتكرّرة هو التّركيب الذي يأتي بعدها، علما أنّ الجمل المتكرّرة الألفاظ يمكن ألاّ تدلّ على المخاطب نفسه عكس ما يبدو في ظاهر النصّ، وهذه بعض النّماذج التي تمثّل مجالات دلاليّة في أسلوب واحد هو النّداء، اصطفيتها لأنّها تمثّل أكثر ما تكرّر وروده في القرآن.

أ ـــ نداء المؤمنين:

تكرّر ورود نداء المؤمنين في القرآن تسعين مرّة(محمد فؤاد،عبد الباقي.1996.ص101)قسّم "الفيروز آبادي" (ت817هـــ) مجموعها إلى ثلاث مجموعات ما كان فيها أمر صرف وما كان فيها نهي مطلق وما اجتمع فيها الأمر والنّهي(الفيروزآبادي،مجد الدين.دت.ج430/5)، وكلّ مجموعة تندرج تحتها تراكيب جمل مختلفة تميّز مضمون كلّ نداء عن الآخر الأمر الذي يفصل بين

وحدات الجمل المتباينة، فيعكس بذلك قيم الانزياح في المجال الواحد وهو نداء المؤمنين، الذي جاءت أنماطه الجمليّة على النّحو الآتي:

1ـ ما أريد فيه الأمر:

- **الأمر بالتّقوى:**

﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنتُمْ مُومِنِينَ ﴾	البقرة/278
﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسلِمُونَ ﴾	آل عمران/102
﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابتَغُوا إلَيهِ الوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ﴾	المائدة/35
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾	التوبة/119
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً ﴾	الأحزاب/70
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُوتِكُم كِفلَيْنِ مِن رَحمَتِهِ﴾	الحديد/28
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾	الحشر/18

الملاحظ من هذه الآيات تكرّر عبارة (يا أيّها الذين آمنوا) التي استهلّت بحرف نداء وليها مجهولان هما لفظ (أيّها) والاسم الموصول (الذين) فلفظ (أيّها) أقحم للتوصّل به إلى نداء ما فيه (أل)(عضيمة، ع.الخالق.2004. ج219/10)،

وهذا النّوع من التّركيب لم يرد مثيله في كلام العرب، وهو ما يمثّل أوّل درجات الانزياح، غير أنّ هذا التّركيب أتبع بفعل أمر يوصي بالتّقوى التي عادة ما تكون من صفات المؤمن؛ ففي الآية «أمرٌ بتقوى الله قبل الأمر بترك الرِّبا، لأنّ تَقْوَى الله هي أصل الامتثال والاجتناب، ولأَنَّ تَرْكَ الرِّبَا من جُمْلَتِهَا. فهو كالأمر بطريق بُرْهَانِي.»(بن عاشور،ط.1984. ج93/3)، ولهذا

أعقب أمره بالتّقوى الأمرَ بترك الرّبا فقال:" وَذَرُوا مَا بَقِي مِنَ الرِّبَا"، ومعنى الآية: «اتركوا ما بَقِيَ في ذِمَمِ الذين عاملتموهم بالرّبا، فهذا مُقَابِلَ قوله "فله ما سلف" فكان الذي سلف قَبْضُهُ قبل نزول الآية مَعْفُوًا عنه و لم يقبض مأمورا بتركه.»(بن عاشور،ط.1984.ج93/3)، وأمّا عن سبب نزول الآية قيل: "نزلت خطابا لثقيف – أهل الطائف – إذ دخلوا في الإسلام بعد فتح مكّة وبعد حصار الطّائف على صُلْحٍ وقع بينهم وبين عتّاب بن أسيد – الذي أولاه النبيّ صلى الله عليه وسلّم مكّة بعد الفتح – بسبب أنهم كانت لهم معاملات بالرّبا مع قريش، فاشترطت ثقيف قبل النّزول على الإسلام أنّ كلّ ربا لهم على النّاس يأخذونه، وكلّ رباً عليهم فهو موضوع، وقبل منه رسول الله شرطهم، ثمّ أنزل الله هذه الآية خطابا لهم – وكانوا حديثي عهد بالإسلام – فقالوا: لا يَدَيْ لنا بحرب رسول الله."(بن عاشور،ط.1984.ج93/3).غير أنّ ما يميّز هذه الآيات عن بعضها هو طبيعة الجمل التي وليت فعل الأمر (اتّقوا) ومفعوله حيث اختلفت مضامين كلّ جملة بحسب السّياق الذي وردت فيه.

- **الأمر بالطّاعة:**

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الاَمرِ مِنكُمْ﴾	النساء/59
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوا عَنهُ وَأَنتُم تَسمَعُونَ﴾	الأنفال/20
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبطِلُوا أَعمَالَكُمْ﴾	محمد/33

لا يختلف التّركيب الأوّل في هذه الآيات عن الآيات السّابقة إلاّ أنّ فعل الأمر تغيّر ودلّ على وجوب الطّاعة وكأنّ المؤمنين على خلاف ذلك كما يبيّن ظاهر النّص، لكنّه شكل من أشكال الحثّ على الطّاعة لأنّ عاقبتها الامتثال لأوامر الله ورسوله، وأنماط الجملة بعد التّركيب الأوّل وفعل الأمر اختلفت لتشكّل المعنى

الإضافي الذي جاءت من أجله كلّ آية من هذه الآيات. (الطحّان،م.2000.ص112)

- **الأمر بالذّكر:**

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا ﴾	الأحزاب/41
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ إذْ هَمَّ قَومٌ انْ يَبسُطُوا إِلَيكُمْ أيدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيدِيَهُمْ عَنكُمْ واتَّقُوا اللهَ ﴾	المائدة/11
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ إذْ جَاءَتكُمْ جُنُودٌ فَأَرسَلنَا عَليهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوهَا﴾	الأحزاب/9

فالاختلاف في متغيّرات هذه الآيات هو ما ولي فعل الأمر حيث جاء مفعولا به تارة ومفعولا مطلقا تارة أخرى.

- **الأمر بأداء الواجب:**

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا للهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ لِلحَوَارِيِّينَ مَن انصَارِيَ إِلَى اللهِ﴾	الصف/14
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمُ أَوِ الوَالِدَينِ والاَقرَبِينَ ﴾	النساء/135
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسطِ﴾	المائدة/8

تغيّرت نوعيّة فعل الأمر في هذه الآيات حيث استهلّ فحوى الخطاب بفعل أمر ناقص دلّ على وجوب النّصرة لله ولرسوله والقيام بالواجبات التي فرضها عزّ وجلّ. (جامي،أحمد فتح الله.2004.ص207)

2 ـــ ما أريد من خلاله النّهي:

- **النّهي عن الابتعاد عن المخالفين لشريعة الله:**

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَالُونَكُمْ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾	آل عمران/118
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ لاَ تَتَخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَولِيَاءَ ﴾	المائدة/51
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَولِيَاءَ آبَاءَكُمْ وَ إِخوَانَكُمْ إِن استَحَبُّوا الكُفرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾	التوبة/23
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَولِيَاءَ ﴾	الممتحنة/1
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَولِيَاءَ﴾	المائدة/57

وكلّ هذه الآيات بدأ قسمها الثّاني بنهي صدّر بفعل اشترك بين الآيات وهو (اتّخذ) ثمّ حدث أن تفرّعت كلّ آية بمضمونها حسب المنهيّ عنه ودرجة اجتهاده في صرف المؤمن عن اتّباع ما أوجب الله. (عمر،أحمد عمر.1995.ص133)

- **النّهي عن أكل الأموال المحرّمة:**

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَاكُلُوا الرِّبَا أَضعَافًا مُضَاعَفَةً﴾	آل عمران/130
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَاكُلُوا أَموَالَكُمْ بَينَكُمْ بِالبَاطِلِ ﴾	النساء/29

اشتملت الآيتان على النّهي عن أكل المال الحرام وانفصلتا في تحديد نوع المال المحرّم، حيث أُتْبِعَ فعل (الأكل) في الآية الأولى بمفعول حرّ من اللّواحق وأتبع الفعل نفسه في الآية الثّانية بمفعول مقترن بلواحق تحقّق معنى الإضافة، وكلّما زادت ألفاظ الآية زاد المعنى الإضافي الدّال على الانزياح بين نوعي التّركيب.

وتفصيل الكلام في ذلك أنّ الآية الأولى وهي قوله تعالى "يأيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا. "جاءتْ «استطراداً في خلال الحديث عن يوم أحد، ثمّ لم يظهر وَجْهُ المناسبة في وُقُوعه في هذا الأثناء. قال ابن عطيّة: ولا أحفظ سببا في ذلك مَرْوِيًّا.» (بن عاشور،ط.1984. ج84/4)

أمّا الآية الأخرى فاستئناف من التّشريع المقصود من هذه السورة، «وعلامة الاستئناف افتتاحه بـــ: "يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا"، ومناسبته لما قبله أنّ أحكام المواريث والنِّكاح اشتملت على أوامر بإيتاء ذي الحَقِّ في المال حَقَّهُ، كقوله "وآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُم".فانتقل من ذلك إلى تشريع عام في الأموال والأنْفُس.فأكل الأموال من الاستيلاء عليها بنيَّةِ عدم إرْجَاعِهَا لأربابها، وغالب هذا المعنى أنْ يكون استيلاءَ ظُلْمٍ، وهو مجاز صار كالحقيقة.ولذلك غلب تقييد المنهي عنه من ذلك "بالباطل" ونحوه». (بن عاشور،ط.1984. ج23/5)

- **النّهي عن دخول البيوت دون إذن:**

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتًا غَيرَ بيُوتِكُمْ حَتَّى تَستَانِسُوا وَتُسلِّمُوا علَى أَهلِهَا﴾	النور/27
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتَ النَبيءِ الاَّ أَنْ يُوذَنَ لَكُمُ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾	الأحزاب/53

حرمات البيوت محفوظة في الشّريعة الإسلامية لذا وجب أن يوجّه مثل هذا الخطاب للمؤمنين فهم أحرى بأن ينتهوا عن ولوج البيوت بغير إذن أصحابها. وتفصيل معنى الآية: «ذكرنا أنّ من أكبر الأغراض في هذه السورة تشريع نظام المعاشرة والمُخالطة العائليّة في التّجاور بهذه الآيات استئناف لبيان أحكام التّزاور وتعليم آداب الاستئذان، وتحصيل المقصود منه كيلا يكونَ النّاسُ مُختَلِفينَ في كيفيّته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد.» (بن عاشور،ط.1984. ج196/18)

أمّا الآية الأخرى ومناسبتها فإنّه: «ابتدئ شرع الحجاب بالنّهي عن دخول بيوت النّبي صلى الله عليه وسلّم إلاّ لطعام دعاهم إليه؛ لانّ النبيّ عليه الصلاة والسلام له مجلس يجلس في المسجد فمن كان مهمّ عنده يأتيه هناك.

وليس ذكر الدّعوة إلى طعام تقييدا لإباحة دخول بيوت النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، لا يدخلها إلاّ المدعو إلى طعام ولكنّه مثال للدّعوة وتخصيص بالذّكر كما جرى في القضيّة التي سبب النّزول فيلحق به كلّ دعوة تكون من النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وكلّ إذن منه بالدّخول إلى بيته لغير قصد أنْ يَطْعَمَ معه كما كان يَقَعُ ذلك كثيرا.». (بن عاشور،ط.1984. ج81/11)

- **النّهي عن التّشبّه بالكفّار:**

﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالذينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرضِ أَو كَانُوا غُزًّى لَو كَانُوا عندَنَا مَا مَاتُوا﴾	آل عمران/156
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالذينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾	الأحزاب/69

فكما ورد الأمر بالفعل النّاقص في النّمط الأوّل كذلك كان الشّأن بالنّسبة لهذا النّمط في هاتين الآيتين، وقد أتبع فعل النّهي بشبه جملة المشبّه به فيها هم الكفّار أو بني إسرائيل حيث اختزلهم لفظ اسم الموصول في الآيتين، وممّا بيّن "الزمخشري" (ت538هــ) انزياحه في النّداء إذا وليه نهي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الحجرات/1، فهو يرى أنّ « حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المساميتين ليمينه وشماله قريبا منه، فسمّيت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسّعا كما يسمّى الشّيء باسم غيره إذا جاوزه وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من فائدة جليلة ليست في الكلام العريان.» (الزمخشري، جار الله.2002.ص1031) ويقصد بلفظ (العريان) هنا هو ما جرى على ألسنة العوامّ وحتّى الفصحاء من العرب ممن خلا كلامهم من ضروب التَّوسُّع الذي تَحْصُلُ به الفائدة.

3ـ ما احتمل الأمر والنّهي:

- **التزام الحدود الشّرعيّة:**

﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ القِصَاصُ فِي القَتلَى﴾	البقرة/178
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ لَعَلَّكُم تتَّقُونَ﴾	البقرة/183

إنَّ افتتاح الآيات بيأيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كان لأجل ما في النِّداء من معاني إظهار العناية بما سيقال بعده؛ ففي الآية الأولى يقول الطاهر بن عاشور في تفسيرها: «أُعيدَ الخطاب بيأيُّها اللَّذين آمنوا، لأنّ هذا صِنْفٌ من التَّشْرِيعِ لأحكام **ذاتِ بَالٍ** في صلاح المجتمع الإسلامي واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعةً ذات استقلال بنفسها ومَدينتها، فإنَّ هذه الآيات كانت من أوّل ما أُنْزِلَ بالمدينة عام الهجرة كما ذكره المفسّرون في سبب نزولها في تفسير قوله تعالى بعد هذا "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم".» (بن عاشور، ط.1984. ج134/2)

أمَّا الافتتاح في الآية 183 من سورة البقرة والتي جاءت كذلك بأسلوب النداء فلإظهار العناية بأمر الصيام وحكمها يقول: «حكم الصِّيام حكم عظيم من الأحكام التي شَرَعَهَا اللهُ للأمّة، وهو من العبادات الرَّامية إلى تزكية النَّفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردًا فردًا؛ إذ منها يتكوّن المجتمع. وفُصِلَتْ الجملةُ عن سابقتها للانتقال إلى غرض آخر، وافتتحت بيَأَيُّهَا اللَّذِين آمنوا لما في النِّدَاء من إظهار العناية بما سَيُقَالُ بعده». (بن عاشور، ط.1984. ج154/2)

- **النداء المصحوب بجملة الشرط:**

﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحتُمُ المُومنَات ثُمَّ طَلَّقتُمُوهُنَّ مِنْ قَبلِ أَنْ تَمسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيهنَّ من عدَّة تَعتَدّونَها ﴾	الأحزاب/49
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيتُمُ الرّسُولَ فَقَدِّمُوا بَينَ يدَيْ نَجواكُمْ صَدَقَةً﴾	المجادلة/12
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المُومنَاتُ مُهَاجرَات فَامتَحنُوهُنَّ﴾	الممتحنة/10
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا تَدايَنتُمْ بدَينٍ إِلى أَجَلٍ مُسمًّى فاكْتُبوهُ﴾	البقرة/282
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا ضَربتُمْ في سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا﴾	النساء/94
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا قُمتُمْ إِلَى الصَّلاَة فَاغسلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْديكُمْ إِلَى المَرَافق﴾	المائدة/6
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا لَقيتُمُ الذينَ كَفَرُوا زَحفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾	الأنفال/15
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا لَقيتُمْ فئةً فَاثْبتُوا وَاذكُرُوا اللهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلحُونَ﴾	الأنفال/45
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بالاثم وَالُعدوَان وَمَعصيَة الرَّسُول ﴾	المجادلة/9
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا في المَجْلسِ فَافسَحُوا يَفسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾	المجادلة/11
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نُوديَ للصَّلاَة مِنْ يَومِ الجُمُعَة فاسعَوا الَى ذكر الله وَذَرُوا البَيع﴾	الجمعة/9

كثيرا ما تكرّرت في القرآن الكريم جملة الشّرط منفصلة أو متّصلة بأسلوب مثل أسلوب النداء قصد تبيان طرفي العدل الإلهي الذي يقابله الجزاء بحسب طبيعة عمل المجازى ،وذلك ما توضّحه ثنائيّة فعل الشّرط وجوابه الذي غالبا ما يضمر لأنّ الإضمار يفيد العموم،كما أن الابتداء بندائهم بصفة الإيمان ترغيبا لهم على الطّاعة وتحريضا لهم على الجهاد في المستقبل.

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعدَ إِيمَانكُمْ كَافرينَ ﴾	آل عمران/100
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجعَلْ لَكُمْ فُرقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتكُمْ﴾	الأنفال/29
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ ينصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقدَامَكُمْ﴾	محمد/7
﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسقٌ بنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصيبُوا قَومًا بجَهَالَة ﴾	الحجرات/6
﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطيعُوا الذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ على أَعقَابكُمْ فَتَنقَلبُوا خَاسرِينَ﴾	آل عمران/149

وهذه صور أخرى من أشكال التّركيب في الشّرط القرآني الذي يجري على نسق واحد في بدايته ثمّ تحدّد المنهيّات أو الواجبات حسب الموجب لعقد الشّرط

كما هو واضح من خلال هذه الآية، فطاعة بعض أهل الكتاب وبعض المشركين حتما سيقود إلى الضّلال والابتعاد عن السّبيل القويم، والملاحظ كذلك في هذه الآيات تعدّد أنواع الجمل التي وردت بعد فعل الشّرط.

وقيمة الانزياح في مجموع الآيات السّابقة تكمن في الجمع بين طوائف أهل الإيمان في جملة (الذين آمنوا) فيدخل ضمنهم أهل الإسلام والنّصارى واليهود بشرط تحقيق العبوديّة والتّصديق بما نزّل على الرّسل فالخطاب في حقّ المؤمنين من الطّوائف المختلفة في زمن النّبي صلى الله عليه وسلم وقبله (الطبري، ابن جرير.2001. ج100/2)، وإلاّ كيف نفسّر نداءه سبحانه وتعالى في مجال آخر النّاس (الكرماني،محمود.دت.ص67) برمّتهم وأهل الكتاب بخاصّتهم.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية 100 من سورة آل عمران: «إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كَيْدِ أهل الكتاب وسوء دُعَائِهِم المؤمنين، وقد تَفَضَّلَ الله على المؤمنين بأنْ خاطبهم **بغير واسطة** خلاف خِطابه أهل الكتاب إذ قال "قُل يا أهل الكتاب" و لم يقل "قل ياأيّها الذّين آمنوا".

والفريق: الجماعة من النَّاس، وأشار به هنا إلى فريق من اليّهود وهم شاس ابن قيس وأصحابه، أو أراد شَاسًا وَحْدَه، وجعله فريقا كما جعل أبا سفيان ناسا في قوله: "إنّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم."» (بن عاشور،ط.1984. ج27/4)

أمّا قوله تعالى: "يَرُدُّوكُم بعدَ إيْمَانكُمْ كَافِرينَ". أفادت " يَرُدُّوكُم" معنى التصيير؛ أي يُصَيِّرُوكم كافرين بعد أَنْ كنتم مسلمين، «فأصل الرّدّ الصّرف والإرجاع قال تعالى: " ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذل العُمُرِ" وهو هنا مُسْتَعَارٌ لِتُغيرَ الحال بعد المُخالطة فيفيد معنى التصيير.و"كافرين" مفعوله الثاني، وقوله بعد "إيمانكم" تأكيد لِمَا أفادَهُ قوله "يَرُدُّكُم" والقَصْدُ من التّصريح به توضيح فَوَاتِ نِعْمَة عظيمة كانوا فيها لو يكفرون» (بن عاشور،ط.1984. ج28/4)

وقوله "وكيف تكفرون"، استفهام خرج من الدلالة عن المعنى الحقيقي إلى الدلالة عن معنى بلاغي، فاستعمل «في الاستبعاد استبعادا لكفرهم ونفيًا له» (بن عاشور،ط.1984. ج28/4)

وجملة "وأنتم تُتْلَى عليكم آيات الله" حالية «وهي مَحَطّ الاستبعاد والنَّفْيّ لأنّ كُلاًّ من تلاوة آيات الله وإقامة الرَّسُول عليه الصلاة والسّلام فيهم وَازِعٌ لهم عن الكُفْرِ، أي وازع، فالآيات مِنَّا هي القرآن وموعظة.» (بن عاشور،ط.1984. ج29/4)

أمّا الآية السابعة من سورة محمد فالجملة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. «وافتتح التّرغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام وإيماءً إلى أنّ الإيماء يَقْتَضِي منهم ذلك، والمقصود تَحْرِيضُهُم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مُشَاهَدَةً يوم بَدْرٍ.

وجِيءَ في الشَّرط بحرف "إنْ" الذي الأصل فيه عدمُ الجزم بوقوع الشّرط للإشارة إلى مَشَقَّةِ الشّرط وشِدَّتِهِ ليجعل المطلوبُ به كالذي يشكّ في وفائه به.» (بن عاشور،ط.1984. ج85/26.وما بعدها)

ب ـــ نداء أهل الكتاب:

﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التّوراةُ وَالانجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعده ﴾	آل عمران/65
﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لِمَ تَكفُرُونَ بآيَاتِ الله وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾	آل عمران/70
﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لِمَ تَلبِسُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكتُمُونَ الحَقَّ وأَنتُمْ تَعلَمُونَ﴾	آل عمران/71
﴿قُلْ يَا أَهلَ الكِتَابِ لِمَ تَكفُرُونَ بآيَاتِ الله وَاللهُ شَهيدٌ عَلَى مَا تَعمَلُونَ﴾	آل عمران/98
﴿قُلْ يَا أَهلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنَ امَنَ تَبغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُم شُهَدَاءُ﴾	آل عمران/99

تنوّعت توابع المنادى بين الإفراد والتّركيب هذا الأخير الذي يأتي تارة ضمن الأسلوب الخبري وتارة ضمن الأسلوب الإنشائي فيكاد هذان الأسلوبان يتناوبان في معرض نصّ الخطاب الموجّه للمنادى، فهذه الآيات مثلا تكشف عن طبيعة

الحوار الذي يعدّ فيه أهل الكتاب الطّرف الرّئيس بحكم سلسلة الأسئلة الموجّهة لهم في صيغة استفهام إنكاري، افتتح فيه التّركيب بشبه جملة قوامها(لام) الجرّ و(ما) اسم استفهام مبني على السّكون الظّاهر على الألف المحذوفة في محلّ جرّ بحرف الجرّ وحذفت (الألف) لاتّصال (ما) الاستفهاميّة بحرف الجرّ والجارّ والمجرور متعلّق بالأفعال التي تليها.(الشيخلي، بهجت ع.الواحد.2001. ج95/2)

والملاحظ أنّ مجموع هذه التّساؤلات كلّها قد وردت ضمن سورة واحدة واستقلّ سؤال واحد في هذه الطّائفة في قوله تعالى:﴿ *قُل يَا أَهلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنَ آمنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَينَا*﴾ المائدة/59 فأهل الكتاب هم اليهود والنّصارى جمعهم هذا التّركيب الإضافي لأنّه سبحانه وتعالى أفرد طائفة منهم في قوله: ﴿ *وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنهُم يَا أَهلَ يَثرِبَ لاَ مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا* ﴾ الأحزاب/13 واختلف فيمن قصد بهذا التّخصيص أهم سكّان المدينة أو من سمعوا نداء "أوس بن قيظي" وهم المنافقون وقيل قبيلة (بني حارثة).(الألوسي، شهاب الدين محمود.1991. ج213/21)

- **نهي أهل الكتاب :**

﴿يَا أَهلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى الله إِلاَّ الحَقَّ﴾	النساء/171
﴿قُلْ يَا أَهلَ الكِتَابِ لاَ تَغلُوا فِي دِينِكُمْ غَيرَ الحَقِّ﴾	المائدة/77

ورد هذا النّمط مرّتين كاد فيهما التّركيب أن يكون متطابقا لولا وجود جملة العطف في الآية الأولى، رغم أنّها -أي الجملة المعطوفة- تحمل المعنى نفسه في الاستثناء الثّاني، هذا المعنى جاء في تبيان الحقّ الذي لابدّ أن يتّبعه أهل الكتاب وذلك في قوله عزّ وجلّ:﴿ *قُلْ يَا أَهلَ الكِتَابِ لَستُم عَلَى شَيءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التّورَاةَ والانجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَّبِّكُمْ* ﴾ المائدة/68.

أمّا عن تفسير الآية 171 من سورة النّساء، فقد جاءتْ استئنافا ابتدائيًّا بخِطَابٍ مُوَجَّه إلى النّصارى خاصة، يقول ابن كثير: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطْرَاءِ، وهذا كثير في النّصَارَى، فإنّهم تجاوزوا حَدَّ التَّصْدِيق بعيسى، حَتَّى رفعوه فوق المترلة التي أعطاه الله إيّاها، فنقلوه من حَيِّزِ النّبوَّة إلى أنْ اتّخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أَتْبَاعِه وأشياعِه.» (ابن كثير،أبي الفداء.2014. ج548/1)

وخُوطِبُوا بعنوان "أهل الكتاب" لا لمدحهم وإنّما هو تعريض بأنّهم خالفوا كتابهم.

والغلو: «تجاوز الحدّ المَألوف، مشتقّ من غَلْوَةَ السَّهْمِ، وهي مُنْتَهَى انْدِفَاعه، واستُعِير للزّيادة على المطلوب من المعقول، أو المَشْرُوعِ في المعتقدات، والإدراكات والأفعال. والغُلُوّ في الدّين أنْ يُظْهِرَ المُتديِّنُ ما يفوتُ الحَدَّ الذي حَدَّدَ له الدِّين.

وقوله "ولا تَقُولُوا على اللهِ إلاَّ الحَقَّ" عطفٌ خاصٌّ على عامٍّ للاهتمام بالنّهيّ عن الافتراء الشَّنيعِ.

وفعل القول إذا عُدِّيَ بحرف "على" دَلَّ على أنّ نِسبةَ القائلِ القول إلى المجرور بعلى نسبة كاذبة، قال اله تعالى " ويقولون على الله إلاَّ الكذب". ومعنى القولَ على الله هنا: أنْ يقولوا شيئا يزعمون أنّهم من دينهم، فإنّ الدّين من شأنه أنْ يُتَلَقَّى من عند الله.» (بن عاشور،ط.1984. ج50/6 وما بعدها)

وأمّا عن تفسير قوله في الآية 77 فالخطاب «لعموم أهل الكتاب من اليّهود والنّصارى.

وقوله: "غيرَ الحَقِّ" منصوب على النّيابة عن مفعول مطلق لفعل "تَغْلُوا" أيْ غُلُوًّا غير الحقّ، وغيرُ الحقّ هو الباطلُ، وعَدَلَ عن أنْ يُقالَ باطلاً إلى "غير الحقّ" لِمَا في وَصْفِ غير الحقّ من تَشْنِيعِ المَوْصُوفِ. والمراد أنّه مُخالف للحَقِّ المعروف فهو مذموم، وأنّ الحقَّ محمود فغيره مذموم. وأُريدَ أنّه مُخالف للصَّوَابِ احترازًا عن الغُلُوِّ الذي لا ضير فيه.» (بن عاشور،ط.1984. ج290/6)

ج ـــ نداء الآباء في القرآن:

ورد نداء الآباء في القرآن أربع عشرة (محمد بسام، رشدي الزين.1995.ص14) مرّة انفصلت منها عبارة (يا أبت) ثماني مرّات شكّل منها حوار إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه قمّة الانزياح في أساليب الخطاب.

﴿ قَالَ لأَبِيه يَا أَبَت لمَ تَعبُدُ مَا لاَ يَسمَعُ وَلاَ يُبصرُ ولاَ يُغني عَنكَ شيئًا﴾	مريم/42
﴿ يَا أَبَت إِنِّي قَدْ جَاءَني منَ العلمِ مَا لَمْ يَاتكَ فاتّبعني أَهْدكَ صرَاطًا سَوِيًّا ﴾	مريم/43
﴿ يَا أَبَت لاَ تَعبُد الشَّيطَانَ إنَّ الشَّيطَانَ كَانَ للرَّحمَنِ عَصيًّا ﴾	مريم/44
﴿ يَا أَبَت إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ منَ الرَّحمَنِ فَتَكُونَ للشَّيْطَان وَلِيًّا﴾	مريم/45

ذكر الشّيخ "الطاهر بن عاشور" أنّ إبراهيم قد علم في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصّغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصّة الآباء مع أبنائهم، فتوجّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوّة إيماء إلى أنّه مخلص له النّصيحة، وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ منبّها على خطئه عندما يتأمّل في عمله، فإنّه إنْ سَمِعَ ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا فَفَطِنَ لِخَطَلِ رأيه وسفاهة حِلْمِه، فإنّه لو عبدَ حَيًّا لكانت له شُبْهَة ما. وابتدأ بالحجّة الرّاجعة إلى الحسّ إذ قال له ﴿ *لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسمَعُ وَلاَ يُبصِرُ*﴾ فذلك حجّة محسوسة ثمّ اتبعها بقوله ﴿*ولاَ يُغنِي عَنكَ شيْئا*﴾ ثمّ انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النّفور عن تلقي الإرشاد من ابنه كما في الآية الثّانية

فلمّا قضى حقّ ذلك انتقل إلى تنبيهه على أنّ ما هو فيه أثر من وساوس الشّيطان كما في الآية الثالثة، ثمّ ألقى إليه حجّة لائقة بالمتصلّبين في الضّلال كما في الآية الرّابعة، أي أنّ الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعّدك على أن تفارق عبادتها.

وفي النّداء بقوله: (يا أبت) أربع مرّات تكرير اقتضاه مقام استتراله إلى قبول الموعظة لأنّها مقام إطناب.(بن عاشور، ط،1984.ج113/16 وما بعدها)

قال "الزمخشري" : « انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورّطا فيه. كيف رتّب الكلام معه في أحسن اتّساق وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللّطف والرّفق واللّين والأدب الجميل والخلق الحسن.» (الزمخشري،جار الله.2002.637)

وقوله (يا أبت) تلطّف واستدعاء بالنّسب، (الأندلسي، أبوحيان.1992. ج268/7)حتّى يذكّره بعلاقة الأبوّة والبنوّة معا وأنّه لا يريد له إلاّ الخير شأنه في ذلك شأن ذوي الأرحام، وهذا دأب الأنبياء في مخاطبتهم لآبائهم أيّا كان المقام الذي يجمعهم كما هي الحال في مثل هذه النّماذج :

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَاوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾	يوسف/100
﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ رَأيتُهُمْ لِي سَاجدينَ ﴾	يوسف/4
﴿وَقَالَتِ احدَاهُمَا يَا أَبَتِ استَاجِرْهُ إنَّ خيرَ مَنِ اسْتَاجَرتَ القَوِيُّ الاَمينُ ﴾	القصص/26
﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُومَرْ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾	الصافات/102

وليست هذه الشّواهد وحدها التي كشفت عن قيم الانزياح في أسلوب التّكرار في النّداء بل هناك خمسين(الفيروزآبادي،مجد الذين.دت.ج425/5) مجالا دلاليّا في أسلوب النّداء، حوى عناصر مختلفة لتراكيب متنوعة قلّما شابه تركيب تركيبًا آخر ممّا يدلّ على نشدان اتّساع المعنى في كلّ ذلك، وإلاّ ما الغرض من

تكرار أسلوب كأسلوب النّداء أربعمائة مرّة ؟، والأسباب الموجبة لتكرار النّمط التّركيبي هي:

- تعدّد معنى الأداة ذات الصّدارة في الجملة.
- تعدّد معنى الصّيغة.
- تعدّد احتمالات العلاقة النحويّة كأن يصلح المعطوف أن يعطف على هذا اللّفظ أو ذاك وكاحتمال تعلّق الظّرف أو الجار والمجرور.
- تعدّد احتمالات المعنى الوظيفي للكلمة المفردة.
- تعدّد احتمالات الذّكر والحذف.
- تعدّد احتمالات تمام الجملة أو افتقارها إلى ما بعدها.
- تعدّد احتمالات المعنى المعجمي للكلمة المفردة.
- احتمالات الدّلالة اللّفظيّة أو الفوقيّة. (تمّام،حسّان.2000.ص164)

فمظاهر الانزياح تبدو من خلال هذه الآيات المتشابهة التّراكيب سطحيّة لا بعد في قيمها التّعبيريّة لكنّ الوحدات المتبادلة المواقع تبرز إمكانيّة التّغاير الدّلالي وإن هي تماثلت ألفاظا ذات نظام مُتشابه، ويمكن اكتشاف قيم انزياحيّة أعمق لو تتبّعنا المقامات البلاغيّة التي يخرج إليها النّداء كالتّعجب والنّدبة والاختصاص، والتمنّي، وهذه الرّوافد من المعاني تحيلنا على دراسة أخرى يمكن أن تتناول ازدواجيّة الانزياح في الخطاب القرآني من حيث المعنى النّحوي والبلاغي.

نتائج الدّراسة:

مجموع نتائج هذه الدّراسة يمكن تلخيصها كما يلي:

1. تاريخيّة المصطلح وتطوّر دلالته لا تعني بأيّ حال من الأحوال المغايرة في المدلول فسمات المعنى الأوّل تمتدّ جذورها عبر المراحل التّطوّر التي يمرّ بها

المصطلح واستخداماته المختلفة، حيث تبقى على الأقلّ سمة واحدة تكون جامعة بين أصل الوضع ومنتهى التطوّر وما استقرّت عليه دلالة المصطلح في زمن ما.

2. يمثّل الانزياح بمختلف أطيافه المفرداتيّة صورة المجاز النّهائيّة بأنواعه وإنّ الأوّل منهما وهو المجاز كثيرا ما يتّسم بالإيغال في عمق المعنى نظرا لقوّة ألفاظ اللّغة في بداية ظهور المجاز، وقدرة أرباب البيان فيما سلف على التحكّم في نظم الكلام وسبكه لأنّه كان يمثّل صنعتهم وهمّهم الشّاغل، أمّا الانزياح فهو غالبا ما يلاحظ في نصوص أحسن ما يميّزها الرّمز الأسطوري بمعانيه التّاريخانيّة لأنّ مستوى اللّغة في النّصوص المعاصرة يختلف حتما عمّا مضى من المستويات التّعبيريّة الأولى، فقيم الانزياح في النصّ المعاصر يمكن حصرها في بعض عبارات النصّ على العكس تماما ممّا نجده في النّصوص القديمة التي يمكن أن يتوشّح بالمجاز من أوّله إلى نهايته.

3. فكرة المجاز اللّغوي في البلاغة العربيّة تلخّصها صور المجاز الذي كان معيار المفاضلة بين النّصوص شأنه في ذلك شأن الانزياح في النّقد المعاصر.

4. القياس في مجال المجاز والانزياح قياس شكلي مع قرب الفارق فالمجاز الابتدائي إن صحّ التّعبير خالف أوّل ما خالف اللّغة الاجتماعيّة في الزّمن الأوّل، ثمّ تدرّجت قيمه قياسا على الصّورة المجازيّة الأولى، فما كان للمبدع أن يكون كذلك إلاّ إذا استحدث صورا مجازيّة جديدة أو زاد شيئا عليها في الكمّ مثلا وما الصّور المجازيّة في اللّغة المعاصرة التي أطلق عليها مصطلح الانزياح إلاّ صورة من صور القياس الشّكلي وهو ما يجعل المجال مفتوحا لا نهاية له مادام هناك مبدع شغله الشّاغل إنتاج النصّ الأدبي.

5. خصائص الأسلوب القرآني توضّح مقادير الانزياح بوصفها قيما خلافيّة للغة العرب التي نسجت لغة القرآن من معجمها.
6. وجود المجاز في القرآن لا يعني بالضّرورة مخالفة الحقيقة التي توافق معيار صدق الواقع، لأنّ صور المجاز في هذا النصّ الكريم كشفت عن تدرّج في مستويات التّعبير وقيمته الفنيّة،وهو ما يمثّل انزياحا عن لغة العرب الأوائل الذين انزاحوا بلغتهم عن مستويات أخرى قبلهم جعلت منهم أمّة البيان قديما وحديثا.
7. أنماط التّكرار في أساليب القرآن يمكن عدّها مقارنة مع بعضها البعض مستويات في الانزياح؛ لأنّ التّطابق لو فهم من التّكرار أو اعتقد بأنّه توكيد لا غير لأدّى ذلك إلى نسف ظاهرة الالتفات في القرآن، ولانعدمت خصيصة جماليّة إعادة الصّورة التّركيبيّة ذات الشّكل الواحد والمضمون المختلف أو العكس.
8. التّشكيلة المتتابعة والمتكرّرة للنّداء هي التي تحيل الذّهن على مقاربات بين الجمل المتساوية لفظا والمتغيّرة معنى، ممّا يؤكّد أنّ روح الانزياح لا يلغيها تجانس التّركيب وإنّما يغذّيها انسجامه وموقع وحداته المكوّنة له فهي تتبادل ولا تتنازل عن القيمة الدّلاليّة التي أكسبها السّياق إيّاها فلولا هذه الخاصيّة لصار أسلوب النّداء برمّته في القرآن ضربا من التّكرار لا غير دون غاية ترتجى من ورائه، وهذا ما لا يمكن تصوّره مع الخطاب القرآني، لاسيما وأنّ صيغه مركّزة ومواضيعه مختزلة اختصارا.

9. افتتاح النّداء بصلة الإيمان مباشرة بغير واسطة فيه اهتمام بالكلام وإظهار للعناية بما سَيُقَالُ بعده، أمّا غير المؤمنين من أهل الكتاب فجاء خطابهم بواسطة؛ إذ قال: "يا أهل الكتاب"، و لم يقل: "يا أيّها الذين آمنوا".

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: العز بن عبد السلام، تحقيق: محمد بن الحسن بن إسماعيل، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م.

2- إعجاز القرآن: القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد صقر، دار المعارف، القاهرة – مصر.

3- الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي: أحمد محمد ويس، اتّحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا.

4- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت ـــ لبنان، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.

5- الأسلوبيّة والأسلوب ،عبد السلام المسدي، دار سعاد الصباح، القاهرة – مصر، 1993.

6- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى وميسّر عقاد، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م.

7- أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان: محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة – مصر.

8- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية: عبد الرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1978.

9- البحر المحيط في التّفسير: أبو حيان الأندلسي، بعناية: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1412هـ/1992م.

10- بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

11- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز: بهجت عبد الواحد الشيخلي، مكتبة دنديس، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م.

12- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية، 1420هـ/2000م.

13- التّحرير والتّنوير:محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
14- التحليل السيميائي للخطاب الشعري: عبد الملك مرتاض، اتّحاد الكتاب العرب، دمشق - سوريا، 2005.
15- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل: جار الله الزمخشري، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.
16- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتعليق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1421هـ/2001م.
17- الخصائص: أبو الفتح عثمان ابن جنّي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
18- خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة ـــ مصر، الطبعة الأولى، 1413هـ /1992م.
19- دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة - مصر، (د،ط)، 1425هـ/2004م.
20- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م.
21- . الطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن علي العلوي اليمني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002.
22- الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: عبد الله دراز، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الرابعة، 1420هـ/2000م.
23- في اللّغة (دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات البنية اللّغوية): أحمد شامية، دار البلاغ، الجزائر، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.
24- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثّقافي العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 2007.
25- اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود: عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م.

26- المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر: ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، 1995م.

27- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، 1418هـ/1996م.

28- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم: محمد بسام رشدي الزين، إشراف: محمد عدنان سالم، دار الفكر، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م.

29- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، استانبول – تركيا.

30- مفتاح العلوم:أبو يعقوب السكّاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.

31- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

32- النّبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1974.

33- نداء القرآن (يا أيها الذين آمنوا): منيب الطحّان، دار سعد الدين، دمشق– سوريا، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م.

34- نداء الله جلّ جلاله: عمر أحمد عمر، دار المكتبي، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.

35- نداء المؤمنين في القرآن الكريم: أحمد فتح الله جامي، دار العرفان، حلب – سوريا، الطبعة الرابعة، 1425هـ/2004م.